■ محمد أركون

مفكر وباحث أكاديمي ومؤرخ جزائري

(١٩٢٨ ـ ١٤ سبتمبر ٢٠١٠ م)

obeikan.com

عن حياته

ولد عام ١٩٢٨ في بلدة تاوريرت ميمون (آث يني) الأمازيغية بالجزائر، وانتقل مع عائلته إلى بلدة عين الأربعاء ولاية عين تموشنت حيث كانت دراسته الابتدائية بها. ثم واصل دراسته الثانوية في وهران، يذكر أركون نفسه أنه نشأ في عائلة فقيرة، وكان والده يملك متجراً صغيراً في قرية اسمها (عين الأربعاء) شرق وهران، فاضطر ابنه محمد أن ينتقل معه، ويحكي أركون عن نفسه بأن هذه القرية التي انتقل إليها كانت قرية غنية بالمستوطنين الفرنسيين وأنه عاش فيها «صدمة ثقافية»، ولما انتقل إلى هناك درس في مدرسة الآباء البيض التبشيرية، والأهم من ذلك كله أن أركون شرح مشاعره تجاه تلك المدرسة حيث يرى أنه (عند المقارنة بين تلك الدروس المحفزة في (مدرسة الآباء البيض) مع الجامعة، وذهب إلي أن الجامعة تبدو كصحراء فكرية)

ثم درس الأدب العربي والقانون والفلسفة والجغرافيا بجامعة الجزائر ثم بتدخل من المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون قام بإعداد التبريز في اللغة والآداب العربية في جامعة السوربون في باريس ثم اهتم بفكر المؤرخ والفيلسوف ابن مسكويه الذي كان موضوع أطروحته.

فارق الحياة في ١٤ سبتمبر ٢٠١٠م عن عمر ناهز ٨٢ عاما بعد

معاناة مع المرض في العاصمة الفرنسية ودفن بالمغرب.

فكره

تميز فكر أركون بمحاولة عدم الفصل بين الحضارات (شرقية وغربية) واحتكار الإسقاطات على أحدهما دون الآخر، بل إمكانية فهم الحضارات دون النظر إليها على أنها شكل غريب من الآخر، وهو ينتقد الاستشراق المبني على هذه الصورة من البحث. يتميز طرح أركون الفكري على محاولة نقد أسس العقيدة الإسلامية على غرار المستشرقين حيث تتلمذ على المدرسة الاستشراقية ويورد كثيرا من المقدمات الخاطئة التي يبني عليها نتائج غير صحيحة. من آرائه أنه يرى أن القرآن مُحرف بسبب أن النقل غير مؤتمن وأن عند الدروز والإسماعيلية والزيدية وثائق سرية مهمة تفيدنا في معرفة النص الصحيح (يفيدنا في ذلك أيضاً سبر المكتبات الخاصة عند دروز سوريا، أو إسماعيلية الهند، أو زيدية اليمن، أو علوية المغرب، يوجد هناك في تلك المكتبات وثائق نائمة مُتمنعة، مُقفل عليها بالرتاج، الشيء الوحيد الذي يعزينا في عدم إمكانية الوصول إليها الآن هو معرفتنا بأنها محروسة جيداً

مسيرته الأكاديمية

عُين محمد أركون أستاذا لتاريخ الفكر الإسلامي والفلسفة في جامعة السوربون عام ١٩٨٠ بعد حصوله على درجة دكتوراه في

الفلسفة منها، وعمل كباحث مرافق في برلين عام ١٩٨٦ و١٩٨٧. شغل ومنذ العام ١٩٩٣ منصب عضو في مجلس إدارة معهد الدراسات الإسلامية في لندن.

مؤلفاته

كتب محمد أركون كتبه باللغة الفرنسية أو بالإنجليزية وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات من بينها العربية والهولندية والإنكليزية والإندونيسية ومن مؤلفاته المترجمة إلى العربية:

١. الفكر العربي
٢. الإسلام: أصالة وممارسة
٣. تاريخية الفكر العربي الإسلامي أو «نقد العقل الإسلامي»
٤. الفكر الإسلامي: قراءة علمية
٥. الإسلام: الأخلاق والسياسة
٦. الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد
٧. العلمنة والدين: الإسلام، المسيحية، الغرب
٨. من الاجتهاد إلي نقد العقل الإسلامي
٩. من فيصل التفرقة إلي فصل المقال: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر

obeikan.com

١٠ .الإسلام أوروبا الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة.

١١ .نزعة الأنسنة في الفكر العربي

١٢ .قضايا في نقد العقل الديني. كيف نفهم الإسلام اليوم؟

١٣ .الفكر الأصولي واستحالة التأصيل. نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي

١٤ .معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية.

١٥ .من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني.

١٦ .أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟

١٧ . القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني

١٨ .تاريخ الجماعات السرية

الجوائز التي حصل عليها

- ضابط لواء الشرف
- جائزة بالمز الأكاديمية
- جائزة ليفي ديلا فيدا لدراسات الشرق الأوسط في كاليفورنيا.
- دكتوراه شرف من جامعة إكسيتر عام ٢٠٠٢.

obeikan.com

- جائزة ابن رشد للفكر الحر عام ٢٠٠٣.

وفاته

توفي في سبتمبر ٢٠١٠ ودفن بمقبرة الشهداء بالرباط بطلب منه.

obeikan.com

صورة الإسلام في الغرب

من المفارقات المثيرة للدهشة في حياة المفكر الجزائري محمد أركون أنه يتكلم ويكتب بشكل جيد اللغة العربية، ورغم ذلك يتردد أنه لا يعرف من لغة الضاد سوى بضع كلمات فقيرة.. ويقال أيضاً إنه لا يعرف من الفكر الإسلامي إلا القليل الضحل، مع أنه متبحر إلى حدود مذهلة في تراثنا وفكرنا الإسلامي ويأخذ موقفاً نقديا يكاد يصل إلى حدود «العداء الفكري» في بعض الأحيان إزاء معظم ما يكتبه المستشرقون عن حياتنا الفكرية. والحق أن أركون يتألم كثيرا لهذه الصورة المغلوطة والشائعة عنه.. وأكثر ما يؤلمه أن المفكرين والباحثين الجادين في مصر على سبيل المثال يغضون الطرف عنه جملة وتفصيلاً.. وإلا فأين الدراسات التي تعالج فكره، أو الندوات التي يساهم فيها.

وفي ظني أن هذا الموقف من أركون قد لا يكون «موقفاً منه» بقدر ما هو سمة من سمات حياتنا المعاصرة التي أضحى فيها عدم الاكتراث بكل ما هو جيد ومفيد وجاد شيئا للأسف طبيعيا ومألوفا..

obeikan.com

وأسباب هذا الظن كما أتصورها هي أن أركون باعتراف القاصي والداني يعتبر قيمة فكرية أساسية في حياتنا فضلا عن كونه بابا رئيسيا- من وجهة نظر مؤرخي الفكر يعبر بنا إلى عالمنا الفكري والإسلامي الرحب.

بمعنى آخر أن من يؤرخ لحياتنا الفكرية ليس بوسعه أن ينظر بنصف عين إلى إنتاج محمد أركون المتعدد والمتشعب في مجال الدراسات الإسلامية والعربية.. فالرجل أوقف حياته منذ بواكير أيامه على رسالة يحدها طرفان الأول هو التنقيب في تراثنا الفكري لإظهار جوانب العقلانية والإنسانية فيه. والثاني هو القيام بدور الوسيط الفكري بين الإسلام وأوروبا بهدف إجلاء الضباب أو الغموض أو سوء الفهم الذي يرين على حد تعبيره – على كلا الطرفين بسبب التوترات والصراعات السياسية.

وللإنصاف يجب أن نذكر أن كل من اقترب من محمد أركون أو عرف إنتاجه جملة وتفصيلا لابد أن يدرك على الفور أن هذه الرسالة لم تغب لحظة واحدة عن بال وخيال أركون عبر سنوات عمره السبعين.

فالكتابة بشكل عام عند أركون، وكتابة الفكر بشكل خاص ليست مجرد تسجيل أو تبليغ وإنما هو –كما يقول- تخريج للواقع في أسلوب شخصي طريف وأصيل وإنتاج فني يتسم بتفاعل خاص

بين فكر وواقع ولغة.

وهو يرى أن الفكر يختلف إدراكه للواقع باختلاف تكوينه الوجودي والوجداني والعلمي كما أن الواقع يتنوع بتنوع البيئة الجغرافية والاجتماعية والثقافية أما اللغة فتتفاوت بتفاوت ثروتها العلمية ومرونتها الأدبية ومنزلتها من الفصحى المكتوبة واللهجات الشفاهية.

ويؤمن أركون بأن كتابة المفكر تمتاز عن سائر الممارسات الكتابية، بما أن المفكر يركز اهتمامه على اختيار الألفاظ ليحولها إلى مفاهيم شاملة لمظاهر عديدة وخصائص ووظائف متنوعة يختص بها كل موضوع من موضوعات البحث.

ويقترب أركون أكثر وأكثر من ثورته الخاصة بالتاريخ الإسلامي فيذكر أنه يواجه صعوبات جمة منها أنه كمؤرخ للفكر الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية الصعبة التي يطغى عليها الخطاب الأيديولوجي والرقابة السياسية والاجتماعية معا لايزال يتوقف ويعدل عن معالجة بعض الموضوعات ويتجنب المحاذير من استخدام الألفاظ والعبارات حتى لا يفسرها القارئ المسلم على عكس ما ينتويه من الإفادة العلمية وحتى يسلم – كما يقول– من تكفير من يجهل قواعد الفكر الحر ومن يسمح لنفسه أن يرتقي إلى مرتبة المفتي المجتهد وهو أبعد الناس عن هذه المرتبة.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن دور محمد أركون في فكرنا العربي المعاصر أن نشير إلى أن أول كتاب له كان بعنوان «الفكر الإصلاحي عند طه حسين».. وضعه عندما كان طالبا بجامعة الجزائر وكانت رغبته شديدة في أن يفهم ويقدم إسهام عميد الأدب العربي في تحديث الخطاب الإسلامي وتحديد مفهوم الدين ووظائفه في المجتمع، نقطة أخرى جديرة بالإشارة هي أن أركون كان ولايزال يحرص على أن تلتصق كتاباته بواقع المجتمعات التي ينتمي إليها وهي كما يحددها بنفسه المجتمع البربري الذي ولد فيه ثم المجتمع المغربي بدولة تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ثم الأمة العربية الناطقة باللغة العربية المنتجة للثقافة والأمة الإسلامية التي تمتد جغرافيا من إندونيسيا إلى المحيط الفرنسي الذي عاش فيه والأمة الأوروبية التي ستتحد عما قريب على أساس تاريخ وثقافة وفكر ساهم في تكوينها الإسلام والفكر العربي في مرحلته المبدعة.

أما الجانب الآخر من رسالة محمد أركون الفكرة فهي كشف زيف الصورة التي يعرفها الغربيون عن الإسلام فيرى أركون أن أوروبا لا ترى في الإسلام سوى مجرد طقوس عبادية واقعة تحت ضغط المراقبة الاجتماعية المتشددة أما البعد الفكري والروحي والحضاري للإسلام فهو شبه غائب والسبب من وجهة نظر أركون هو أن الاستشراق الكلاسيكي والأدبيات السياسوية المتسرعة والمنتشرة عن الإسلام والحركات الإسلامية في الغرب حاليا تزيد

للأسف من انتشار هذه الصورة عن الإسلام المجرد الذي يقف فوق الزمن والتاريخ بمعنى الإسلام الأقنومي الذي لا يتأثر بشئ ويؤثر على كل شيء بل أن الأدبيات الاستشراقية تضفي ثقلها العلمي على هذا التصور السكوني الجامد عن الإسلام والمسلمين ماضيا وحاضرا..

يبقى أن نذكر أن محمد أركون هو رمز عربي إسلامي أنضجته أرض الجزائر مثلما أنضجت من قبله مالك بن بني صاحب «الظاهرة القرآنية» وإذا كان هذا الأخير أتيح له أن يُعرف وينتشر في مصر قبل أكثر من ثلاثين عاما فليس أقل من أن يأخذ هذا الرجل «محمد أركون» فرصته هو الآخر.. لأنه لا معنى لأن يكون فكره معروفا في أوربا وغالبية دول العالم الإسلامي بينما يظل غائبا أو بالأحري مغيبا في مصر.

obeikan.com

لنا الله في ثقافتنا ومثقفينا

أسعدني كثيرا أن أجد (ضمن برنامج محاضرات وندوات معرض الكتاب) قبل سنوات اسم المفكر الجزائري محمد أركون وقدرت للقائمين على تنظيم المعرض هذا الصنيع ليس فقط لأن هذا الرجل (محمد أركون) هو مفكر إسلامي من الوزن الثقيل وتعتبر مؤلفاته التي تصدر بلغات مختلفة «عتبة» أساسية للولوج إلى حياة العرب والمسلمين (القديمة والمعاصرة..) ناهيك عن أنه بعد أن بلغ من العمر عتياً تفرغ للمحاضرات التي يلقيها في جامعات العالم.. لكنني فوجئت بأن صاحب الدعوة ليس معرض الكتاب وإنما المركز الثقافي الفرنسي بالقاهرة الذي يشارك بجناح عامر كعادته ضمن هذه التظاهرة الثقافية السنوية..

.. وأحزنني أن تفلت هذه الفرصة من يد (رئيس الهيئة العامة للكتاب) وقتئذ خصوصاً أنه من أكثر العارفين بقدر هذا المفكر العربي الكبير.. فلقد عاش في باريس عدة سنوات عندما كان مديرا لمعهد العالم العربي، وكذلك أركون كان يعيش في مدينة النور أيضاً..

وبالقطع لابد أنه قد التقاه أكثر من مرة في لقاءات أو ندوات أو محاضرات داخل المعهد..

أيا كان الأمر لقد جاء الرجل إلى مصر، وألقى محاضرته وسط مرتادي الجناح الفرنسي وقلة ممن يعرفون محمد أركون.. وانشغل -ياللأسف- المعرض عنه تماما مكتفياً بالضجيج الذي افتعله - بصورة مبالغ فيها حول حضور الكاتب التركي أو رهان باموك!! الذي تضاءلت بجواره هذا العجيج المفتعل قامة أركون وآخرين!

وكنت تساءلت أكثر من مرة عن سبب تجاهلنا لمحمد أركون فلم أجد جواباً غير الإهمال، واللامبالاة، وفقدان لحاسة التمييز. فهذا الرجل – شئنا أم أبينا – هو أستاذ أساتذة الفلسفة الإسلامية في العالم اليوم، وقد درس على يديه مئات من الطلبة العرب والمسلمين، أما مؤلفاته التي تزيد عن الأربعين، ومحاضراته وتبلغ بضعة مئات فلقد استفاد منها الملايين دون أدنى مبالغةً ويكفي أن نعلم أن إنتاجه العلمي هو محطة أساسية لكل من يفكر أن يعرف دقائق الفكر والفلسفة الإسلامية.. لقد تجاهلنا هذا الرجل مع أنه «منّا» و«عنوان» لمرحلتنا، وأستاذ لنا ولأولادنا وللأجيال المقبلة.. وأفكاره شديدة العصرية، فهو يركز على «مبدأ المواطنة» ويرفض فكرة تديين السياسة، وقديماً اتهمه عبد الرحمن بدوي (فيلسوفنا الراحل) بأنه أعطى للعلمانية كارت مواطنة في بلاد الإسلام.. وداخل الدين

الإسلامي.. ولقد انسحب هذا الإهمال من المعرض إلى وسائل الميديا فلم يبرز فيها إلا عَرضا وبين الأخبار الثقافية الشريدة التي تتحدث عن برامج المعرض.. أهمله التليفزيون، ولعل المرة الوحيدة التي استضافه فيها كان قبل أكثر من عام وعبر شاشته الفضائية بمبادرة شخصية من المعد المثقف أيمن عوّاد.

.. أقطع أننا سنندم يوما أن أركون كان لنا، وبين ظهرانينا، على ضفاف النيل، لكننا لم نجالسه أو نناقشه كما ينبغي.

مرة أخرى أقول إن الأجواء الإصلاحية التي تعيشها مصر اليوم يباركها محمد أركون، ويراها خطوة مهمة وضرورية وكان لابد أن تبادر بها مصر لأن الدول العربية سوف نحذو حذوها كما هي العادة التي يعرفها التاريخ..

.. ويقدر أركون لمصر مكانتها وريادتها، ويشدد على مدنيّة دولتها، ويطالب الجميع بمواجهة الفكر الانتهازي.

ويعتبره الغرب –كل الغرب– المرآة الحقيقية للفكر الإسلامي المعاصر..

وسؤالي هو: لماذا لم نفطن لهذه المكانة التي يحتلها محمد أركون في العقل الأوروبي..

ولماذا أهملناه –عن عمد أو جهل– مع أن فكره يخدم كثيرا هذه

الصفحة الإصلاحية التي تكتبها مصر وتناضل من أجل أن تتحقق بنقاء وبعيداً عن مناورات الإخوان وفكر الجاهلية.. ولماذا كشفنا قصور فهمنا، وعوراتنا الفكرية بهذه الدرجة الفاضحة؟

.. إنها مصيبة يا قوم أن يمر من بيننا المفكر الكبير محمد أركون دون أن ندري، وكأن شيئاً لم يكن.. لنا الله في ثقافتنا ومثقفينا!

النهضة العربية.. مالها وما عليها

الدكتور محمد أركون هو –بلاشك– أحد أبرز الأسماء اللامعة في حياتنا الثقافية المعاصرة.. والمعيار هنا، ليس كم نتفق معه وكم نختلف، ولكن.. ما استحدثه بالأحرى ما طبعه من مناهج في الدراسة والبحث خصوصاً في الفكر الإسلامي.. فمؤلفاته عديدة في هذا المجال، ولعله من القلائل الذين يثيرون – ربما على الرغم منهم – ضجة مع كل كتاب يصدر له.

وفي تصوري أن اسم هذا الرجل سيظل علامة مضيئة على طريق البحث العلمي النزيه [في إطار بحثي الدائم حول إشكالية النهضة العربية التقيت به في مكتبه بجامعة السوربون.. وأطلعته على ما تحوي جعبتي من أسئلة واستفسارات.. فاستهل إجاباته معي بمقولة تحمل كثيراً من أمارات: الأمل والتفاؤل.. قال: إنه من الخطأ الاعتقاد بأن النهضة كأفكار وكآليات – في حالة خصام مع منطقتنا العربية فالصحيح أننا نتنفس حاليا مناخاً نهضوياً منذ أواخر القرن الماضي وحتى الآن.. وأن تاريخنا المعاصر زاخر بجهود رجالات رواد عبّدوا الطريق، وتقدموا المسيرة النهضوية في ميادين الأدب

والفكر والدين.. وأنه من الظلم لأنفسنا أن نلغي من حياتنا –بأحكام مُتسرعة وغير مسؤولة– ومضات وإشراقات نهضوية رائدة ماتزال تأتي أكلها حتى الآن.

لكن إذا شئت الدقة – والكلام دائماً للدكتور محمد أركون.

– فيمكن أن ننطلق من القول بأن النهضة لاتزال –تمثل لدينا– مشكلة تاريخية، بمعنى أننا لم ندرس بعد –دراسة تحليلية نقدية– ظواهر المجتمع العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وأرجو ألا يُفهم من ذلك أنني أنكر أن هناك دراسات عديدة قد أُنجزت على صعيد رصد التطور السياسي والظواهر الثقافية والفكرية، وإن كنت أرى أن معظم هذه الدراسات لا تطرح القضايا التاريخية على أساس جذري.

ثم استرسل د. أركون موضحاً فكرته وقال: أعني أننا عندما أرّخنا لتطورنا السياسي استطعنا أن نُسقط من حساباتنا الأُطر الاجتماعية الأخرى. فاكتفينا مثلاً بإيراد أسماء الأمراء والسلاطين والحوادث السياسية الهامة التي تتصل بأعمال الدولة. دون أن نعطي اهتماما – ولو يسيرا – ما يحدث في الميادين الأخرى.

فمؤرخ الأدب يؤرخ فقط للأدب. ومؤرخ الحياة الدينية يؤرخ للعلماء ورجال الدين، بينما مؤرخ العلاقات مع الغرب لا يهتم إلا بسرد الحوادث الهامة المرتبطة بتلك العلاقة... الخ.

وبالتالي يبدو لي أن ما نسميه نهضة أنما هو ليس إلا إبراز التفاوت الشاسع بين التطور الفكري والمدني الذي كان قد بلغ أوجه في المجتمعات الأوروبية خصوصا في فترة ما بعد الثورة الفرنسية الكبرى، والمجتمعات الإسلامية التي كانت قد تفككت نظمها الدولية، وفقدت اتصالاتها بالعهد الكلاسيكي للفكر الإسلامي والثقافة العربية كما نعرفها بين القرنين الأول والسادس للهجرة.

ثم لخص فكرته وقال:

لذلك يجب علينا أولاً أن ندرس تاريخ هذا التفكيك لنفهم كيف كانت الأطر الاجتماعية في أواخر القرن الثامن عشر، إذ كانت الحوادث الطارئة في أوائل القرن التاسع عشر لا يمكن أن تؤثر على المجتمعات ككل.

وكان الاصطدام مُنحصراً في البيئات الضيقة والجماعات المحدودة في المدن كالقاهرة ودمشق وتونس والجزائر وغيرها من المدن العربية الهامة.. خصوصا أن تلك المدن لم تكن تحافظ على ما كانت عليه من الازدهار الفكري والثقافي والفني، والسياسي.

- بالطبع هناك فروق عديدة إذ ليس بمقدورنا -على كل حال- أن نتكلم عن نهضة عربية مثلما يتكلم الأوروبيون عن نهضتهم. لأن مفهوم الدين في أوربا يدل على تيارين قويين قد انبثقا عن المجتمع الأوروبي نفسه وهما:

- تيار العقلنة وحرية الفكر التي تُطبق حتى على التقاليد الدينية والنصوص المقدسة

- أما التيار الثاني والذي يؤكد التيار الأول ويرتبط به فهو تيار التحرر الثقافي والفكري من سلطة الثقافة الكاثوليكية كما تفرضها وتراقبها الكنيسة ذاتها.

هذان التياران في أوروبا مازالا يزدهران ويقويان وهما بطبيعة الحال – الأب الشرعي – للتيار الفكري الحديث المعروف في القرن الثامن عشر بفكر الأنوار الذي أدى إلى الثورة العظمى التي حدثت في فرنسا وشملت المجتمعات الأوروبية.

لقد اعتدنا أن نعتبر هذه الثورة ونفهمها كثورة سياسية تدعو إلى احترام حقوق الإنسان، وإقامة جمهورية في محل النظام الملكي. ولئن كنت أوافق على هذا الفهم إلا أنني أرى أنه يجب ألا ننسى أن هذه الثورة هي ذاتها الثورة الفكرية والنفسانية التي غيّرت تغييرا جذرياً نظرة العقل إلى الوضع البشري وإلى العالم وإلى طرق إنتاج المعرفة وتصحيح هذه المعرفة بوسائل فكرية حديثة.. وهو الشيء الذي – للأسف الشديد – لم نفكر فيه بعد في الفكر الإسلامي – وهو ما يبرر – في ذات الوقت – القول بأن ما نسميه نهضة عندنا ليس إلا عددا من الصدامات السياسية والثقافية بين جوانب «سطحية» من التفكير الغربي كما وصفناه، وجوانب سطحية أخرى ومتفككة من

الفكر الإسلامي الزاهر.

يجب أن نكون -في كل الأحوال- موضوعيين ومُنصفين لجماعة الباحثين والكُتّاب والمفكرين العرب في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، إذ لا شك أن هؤلاء النفر قد بذلوا جهوداً متواصلة وناجحة في تقديم آراء حديثة وعلوم جديدة، تلقّوها في الجامعات الغربية وهضموها وأعطوها صبغة عربية ثم كيّفوها - في حدود إمكانياتهم - مع الوسائل المتوفرة في زمنهم بالمجتمعات العربية ومتطلباتها.

إلا أننا يجب أن نعترف - ونحن هنا لا نُدين أو ندافع وإنما نرصد ما حدث تاريخيا - بأنهم لم يتنبهوا إلى أمر مهم - لم يتنبه إليه الغربيون أيضا - وهو ما يسمى بـ«المثالية» من جهة وبـ«الوضعية» من جهة أخرى..

فكان المفكرون العرب يطبقون العلوم الوصفية في إطارها الغربي دون أن ينقدوها نقدا فلسفياً كما نفعل ذلك الآن بعد الخمسينيات والستينيات من هذا القرن.

- ولذلك ألح على أننا يجب أن نقوم بما لم يقم به هؤلاء المفكرون وهو التمييز الفكري بين الحداثة الكلاسيكية كما ازدهرت في الغرب بين القرنين السادس عشر والنصف الأول من القرن العشرين، والحداثة المعاصرة بعد الخمسينيات والستينيات

التي تعتمد على النقد العلمي والفلسفي لجميع العلوم التي ازدهرت في فترة الحداثة الكلاسيكية.

- كما يجب علينا أيضاً أن نلتفت إلى ما ينقص فكرنا العربي المعاصر خصوصا ما يتعلق بالتهيؤ الفكري والعلمي حتى فيما كان أصحاب النهضة قد انتبهوا إليه واهتموا به. أعني بذلك أن رجال النهضة كانوا يهتمون مثلاً بعلم الفيلولوجيا أسوة بزملائهم في الغرب إلا أننا قد أهملنا هذا العلم كثيراً في هذه الأيام على الرغم من أنه مفيد جداً في دراستنا للتراثيات.

[ولئن كنت أذكر هذين المثالين فلأنهما من الأهمية بمكان في تجديد فكرنا العربي المعاصر ولإيقاف التيارات الأيديولوجية الجارفة التي تستغل مفهوم التراث لأغراض «مخيالية» أكثر مما تعتني بتقديم هذا التراث في صورته الفكرية والثقافية الجميلة والثرية.

- لابد أن نعترف بأننا نعيش في «نهضة ناقصة» فالمجتمعات والثقافات قد تطورت وازدهرت تيارات فكرية جديدة اعتنى بها كثيرون، لكن هذا كله مايزال ناقصا إذا قسناه بحاجات المجتمعات العربية المعاصرة، وإذا قسناه أيضا بالمشاكل الجديدة التي لم تكن موجودة في عصر النهضة وظهرت فيما بعد، ومن ثم يجب أن نواجهها بالأسلحة المناسبة لها كمشاكل جديدة وليس بالأسلحة

obeikan.com

التي كانت تستعمل في القرن التاسع عشر.

وأيا كان الأمر فلابد أن تكون لدينا الشجاعة للقول بأننا في العصر الراهن لا نسير على نفس الطريق الذي سار عليه رواد النهضة، أو إن شئت فقل لقد تباطأنا كثيرا.

وختم د. محمد أركون أستاذ تاريخ الفكر الإسلامي بجامعة السوربون حديثه معي وقال: يجب علينا نحن العرب أن نُعيد النظر في تاريخ مجتمعاتنا أثناء السنوات الثلاثين الأخيرة. إذ في هذه الفترة قد وقعت تغييرات جذرية أدت إلى ظهور مجموعة من الظواهر والإشكاليات الضخمة التي تقف حجره عثرة في طريق مسيرتنا النهضوية..

obeikan.com

العنصرية.. إلى أين؟!

العنصرية -في رأيي- ظاهرة موجودة في كل المجتمعات التي تنحدر عناصرها من أصول وثقافات ولغات مختلفة. والطبيعي جدا أن ينزعج أبناء البلد الأصليون عندما يجدون أن عناصر أخرى أخذت تزاحمهم وتنافسهم في المناصب والخدمات التي يوفرها مجتمعهم. أي أن شعورهم بالتهديد في هذه الحالة ليس مستغرباً.

وعندي ان العنصرية -تاريخيا- ترجع إلى التصورات التي ترسخ في مخيلة الناس فيما يخص الاختلافات الدينية، فالحروب الأهلية التي عرفتها فرنسا مثلا كانت عنيفة لأسباب دينية مع أن الفرنسيين في القرن السادس عشر كانوا من أصل واحد! وهو ذات الشيء الذي يحدث بين أناس آخرين يتقاتلون لأسباب دينية أو سياسية على الرغم من أنهم ينحدرون من أصل واحد.

معنى هذا أن العنصرية ليست إلا مجموعة من التصورات التي لا تتعلق بالعنصر فقط ولكن تتعلق أيضا بالأخلاق والعادات التي تختص بها كل جماعة في مجتمع ما.. والاصطدام بين العناصر يرجع

سببه أيضا –في رأيي– إلى المنافسة التي توجد في جميع المجتمعات من أجل السلطة.. كل هذا قد يُقدم في لغة خاصة تستعمل مفهوم العنصرية مع أن التوترات ترجع إلى أسبابا غير عنصرية.

أما بالنسبة لوجود العرب والمسلمين في البلدان الأوروبية الذي بدا يزداد ويتسع في الفترة الأخيرة فيجب أن نرجع – ونحن بصدد تفسيره – إلى الأصول التاريخية القديمة في المنافسة بين الأديان المنزلة إذ نعرف أن الإسلام منذ ظهوره في المدينة كان له أن يواجه رفض اليهود والنصارى، إذ كان الإسلام ينافس هذين الدينين.. باستغلال رموز دينية مشتركة كالوحي والنبوة والميثاق أي العلاقات بين الإله الذي يخاطب البشر عن طريق الأنبياء وبين الشعوب التي اختارها ليبلغ كلامه لكافة الناس بواسطتها.

هذه المنافسة في استغلال الرموز الدينية الرئيسية لم تزل تزداد بين أهل الكتاب طوال القرون ولم تزل تتفاقم لأسباب سياسية واقتصادية إذ كانت الشعوب التي تعيش حول البحر المتوسط لاتزال تتنافس لاحتكار السيادة وموارد الأرزاق في هذه المنطقة.. ولذلك نجد أسبابا كثيرة. وقديمة تدفع كل أمة إلى أن تتظاهر بالقوة والسلطة والتغلب على الأمم الأخرى، فالمسلمون مثلا يعتمدون على القول «إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين» والمسيحيون يعتمدون على القول «أن خارج الكنيسة لا نجاة الناس» وبهذه الأفكار الثيولوجية التي

كانت تلقن في المجتمعات الدينية من جانب العلماء وفي جميع المدارس وفي الخطب الدينية قويت التصورات التي نعبر عنها اليوم بالمواقف العنصرية.

وهذا النوع من الرفض المتبادل بين أمم أهل الكتاب لم يزل يسود إلى يومنا هذا فيما يلقن لأبنائنا في المدارس الرسمية باسم التعليم الديني.. وهذا يوجد عند المسلمين وعند المسيحيين وعند اليهود على حد سواء.

معنى هذا أننا لم نجد بعد الطريقة العلمية السليمة لنقدم لأبنائنا التقاليد الدينية في محتواها الإيجابي الذي يدعو إلى التسامح والأخوة بين الناس أيا كان دينهم أو مذهبهم الفلسفي والسياسي.

هذا النوع من التربية المعتمدة على روح التسامح والتفاهم والتعلم والبحث النقدي لم نهتد إليه بعد. فالخطاب الديني التقليدي الذي يستعمله جميع أهل الكتاب مبني على أطر.

«العلمانية» ليست حلاً!

الدكتور محمد أركون هو مفكر عربي معاصر من الوزن الثقيل، وأحد أبرز دعاة العقلانية في فكرنا العربي.. ثم هو عتبة أساسية من عتبات الولوج إلى فهم حياة العرب والمسلمين قديماً وحديثاً.. مؤلفاته العديدة في الفكر والحضارة الإسلامية تملأ أرجاء كبريات المكتبات في العالم بمختلف اللغات، ومحاضراته في الجامعات الإسلامية يأتي إليها الدارسون من كل فج عميق.. وهو أحد الأسماء المثيرة للجدل في كل الأوساط فبعض العرب يحسبونه على الفكر الاستشراقي الغربي، ويصنفون كتبه «النقدية» في قائمة الكتب الصعبة وعلى رأسها كتابه الشهير «نقد العقل الإسلامي» الذي يلعب فيه الدور الذي سبق أن لعبه الفيلسوف الألماني (عما نويل كانت) في كتابه «نقد العقل المحض».. بينما يراه البعض الآخر مؤسسة أكاديمية وبحثية بمفرده، فقد تتلمذ على يديه في جامعات أوروبا عشرات الباحثين، وأدار وأشرف على مئات من ملفات البحث المهمة.. ثم هو –فوق كل ذلك– أفضل من يقدم الإسلام الصحيح للأوروبيين لأنه درس منهجهم، وتعلم –ثم عمل لاحقاً– في

جامعاتهم..

أما أبحاثه فقد نحت بالدراسات الإسلامية منحى جديداً عصمها من تجنيات المستشرقين والباحثين المغرضين كما أنقذها من براثن المتزمتين الذين يسيؤون للدين ومهنة البحث العلمي على السواء..

وهو -في كل الأحوال- صاحب فكر واضح، ينطلق من روح «النقد العقلاني».

وفي هذا الحوار نتعرف على الرجل وجانب من أفكاره حول «الصحوة الإسلامية والعلمانية»، والتراث..

- كثر الحديث في هذه الأيام عن «الصحوة الإسلامية» ما هو تحديدك الدقيق لهذا المصطلح، ثم هل تعني «الصحوة» أنه قد سبقها بالضرورة «غفوة» في الفكر الإسلامي؟

الصحوة الإسلامية، هي عبارة قد أُطلقت منذ بضع سنين على الحركات الجديدة التي نشاهدها في المجتمعات الإسلامية، وهي حركات تستهدف إحياء القيم الإسلامية وتطبيقها في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، وظهرت حركات توصف بحركات سياسية ولكنها على كل حال تستعمل ثقافة دينية وشعارات دينية للإلحاح على ضرورة استرجاع الإسلام كقاعدة أساسية في تدبير أمور الناس في المجتمع وهذه الحركات تستهدف أيضا من وراء هذا

الادعاء نقد المسؤولين أو أولى الأمر كما يقال الذين يتحكمون في البلدان الإسلامية دون أن يستلهموا رأي تلك الحركات، ما هو إسلامي أصيل.

وبعد أن تساءل الدكتور أركون عن الفرق بين «الصحوة» وبين ما عُرف عندنا منذ القرن التاسع عشر باسم «النهضة» أضاف يقول:

عندما نقارن بين ما يطالب به المسلمون المنتمون إلى هذه الحركات التي سبق وذكرتها. وما كان يطالب به المسلمون في القرن التاسع عشر والنصف الأول من هذا القرن، يصعب علينا أن نجد فرقا كبيراً، لأن المشكلة في الحقيقة تبقى قائمة، وهي اصطدام الإسلام كدين وثقافة وتاريخ بما نسميه الحداثة Moderniste.

ومما لاشك فيه أن هذه الحداثة قد فُرضت علينا من الخارج، فرضها الغرب من خلال نظمه الاقتصادية وطرقه في الإنتاج والمعاملة.. وهذه الطرق الجديدة استبقت ثقافة خاصة بالغرب. وهي ثقافة علمانية منفصلة عن الأصول الدينية للثقافة هذا هو الحدث الأعظم الذي جعل المسلمين يتساءلون عن معنى تاريخهم عندما يواجهون هذا التيار الجارف الذي بدأ يؤثر في جميع نواحي حياتنا منذ القرن التاسع عشر ولا يزال يبقى تأثيره القوى في وجداننا وفكرنا إلى يومنا هذا. واستطرد الدكتور أركون يقول:

لهذا أرى أن عبارة «الصحوة الإسلامية» إنما هي ترجمة للعبارة

الفرنسية Le revil de I'islam أطلقها الصحافيون الغربيون أخيراً عندما شاهدوا هذا الحدث التاريخي الهائل الذي حدث في إيران، وهذا يدل على أن العرب لا يستمدون من داخل تاريخهم ومجتمعاتهم المصطلحات اللائقة للدلالة على ما يحدث حقيقة عندهم بل يفضلون أن يتأثروا بما يقال عنهم في الصحافة الغربية، وينقلون أقوال المراقبين الغربيين ليصفوا أحوالهم. وعقيدتي أنه لاتوجد حاجة إلى استعمال كلمة جديدة، إذ إن ما أسميناه نهضة لم يُستكمل بعد، وعلينا في الوقت نفسه أن نواصل الجهاد والاجتهاد لنبلغ أسمى الأهداف التي كان قد تصورها وسعى وراءها المفكرون والمثقفون العرب منذ القرن التاسع عشر.

الحداثة الفكرية

- تحدثت عن تأثير الفكر الغربي على حياتنا منذ القرن التاسع عشر، ما هو حجم وقوع هذا التأثير؟ ثم هل صحيح أن بداية عصر النهضة العربية تبدأ مع غزو نابليون لمصر؟

- المؤرخون يتكلمون عن بداية النهضة التاريخية الجديدة للمجتمعات الإسلامية منذ أوائل القرن التاسع عشر عندما غزا نابليون مصر، ولكن في الحقيقة يمكن أن ترجع إلى ما وراء ذلك في القرن الثامن عشر. إذ كانت ثمة اتصالات بين الغرب من خلال ما عُرف بفلسفة الأنوار والدولة العثمانية، إلا أن هذه الـphilosophie de Iumiére، الدولة والأمم الإسلامية التي كانت تحت سيطرتها لم يكن حظها من التفتح الفكري يسمح لها بالاستفادة من الحداثة الفكرية التي كانت تخطو في الغرب خطوات سريعة خاصة بعد الثورة الفرنسية الكبرى. ولم تتأثر مجتمعاتنا الإسلامية في ذلك الحين إلا بالجانب المادي للحداثة، وتركت جانبا الجانب الفكري. وأكبر دليل على هذا الانفصال الذي عرفته مجتمعاتنا بين الحداثة الفكرية والحداثة المادية هو ما حدث لعلي عبد الرازق وطه حسين بمصر عندما أصدرا في عام ١٩٢٥، كتابيهما المشهورين

«الإسلام وأصول الحكم» و«الشعر الجاهلي» اللـذين التزمـا فيهمـا تطبيق المنهاج التاريخي النقدي المعتمد على علم الفيلولوجيا، الذي اشتهر عند الغربيين منـذ القـرن السـادس عشـر، والـذي اسـتخدمه الأنسـيون Les humanistes الغربيـون في أحيـاء تـراثهم اليونـاني واللاتيني وعلى الرغم من أننا لم نكتشف هـذا المنهـاج الفيلولـوجي الذي يعتبر منهاجاً أساسياً في قراءة النصـوص القديمـة قـراءة نقديـة تاريخية، إلا أن الأزهريين قد أنكروه على الرجلين «علي عبد الـرازق و طه حسين» كما هو معروف من الضجة التي أثيرت حول الكتابين.

والسبب في ذلك، يضيف الـدكتور أركـون، يعـود إلى أن هـؤلاء الأزهريين لم يَطلعوا على الحداثة الفكرية ولم يهتموا بمعرفة المنـاهج التعليمية الجديدة التي أبدعها العلماء والمفكرون في مجـال العلـوم الإنسانية عامة.

وإذا علمنا أن هذه الحداثة الفكرية قد خطت الآن خطوة أخـرى أعظم من الخطوات السابقة منذ القرن التاسع عشر خصوصاً في علم اللسانيات، وعلم الأنثربولوجي وعلوم التاريخ والاجتماع. لأدركنـا مدى القصور الذي اقترفناه في حق تراثنا وفكرنا العربي والإسـلامي إجمالاً.

• هل يعني هذا أن العالم الإسلامي لم يعرف في النصـف الأول من القرن العشرين غير لون واحد من ألوان الحداثـة وهـو الحداثـة

المادية؟

- لاشك أن بعض المفكرين استطاعوا أن يستوعبوا «الحداثة الفكرية» وعملوا على تنشيط حياتنا الثقافية من خلال عناصر هذا اللون من الحداثة، في مصر مثلاً، كانت هناك فئة من المثقفين والباحثين والكتاب استطاعوا من خلال تفتحهم الذهني أن يستوعبوا هذه الأفكار الطارئة على البيئة والثقافة الإسلامية وطفقوا يشرحونها ويبسطونها من خلال كتاباتهم، ويدعون إليها بحماس شديد في بعض الأحيان وبوعي وفهم في معظم الأحيان.

واستطرد أركون قائلاً اليوم تشهد الساحة العربية العديد من التيارات الأيديولوجية المناضلة ضد الإمبريالية الغربية وعلى الرغم من أنني أرى أن هذه المناضلة لابد منها فإن هناك أكثر من نقطة يجب أن أشير إليها:

أولا: إن هذه المناضلة، التي أكرر أنها ضرورية –يجب ألا نقف عندها بمعنى ألا تعدل بنا عن الإسراع في المساهمة الفكرية لإحداث الحداثة الفكرية، المرتكزة على أصالة الثقافة والفكر في الإسلام.

ثانيا: نضالنا السياسي ضد الغرب الذي يسيطر على نظمنا السياسية وحياتنا الاقتصادية كثيرا ما ينسينا ضرورة التسلح الفكري لا باسترجاع قيم تراثنا فقط، ولكن أيضا بالمساهمة الفعلية في تحديث العلوم المعاصرة، وتطويرها وتطبيقها في حياتنا الثقافية

والفكرية والاجتماعية.

ثالثاً: هنا أيضا يجب أن ألح على أن التعليم في مدارسنا الثانوية وأيضا على المستوى الجامعي لم يستوف جميع الشروط للنهوض بهذه المسئولية الفكرية والعلمية الجديدة، التي يفرضها علينا التطور السريع للمعارف والتكنولوجيا والعلوم الدقيقة وجميع ما يوصف اليوم بالحداثة الفكرية. بعبارة أخرى.. إذا نظرنا إلى البرامج التي تُعتمد في التعليم في الثانويات وحتى في الجامعات نلاحظ أن هذه العلوم الإسلامية الأصيلة لم تُدرس على الطريقة العلمية الصحيحة، لذلك نجد أن العلوم الإنسانية والاجتماعية التي ظهرت منذ الخمسينيات والستينيات تجددت مناهجها، وتجددت أشكالياتها فيما يخص جميع المشاكل المتعلقة بالحياة البشرية المجتمعية. هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية. للأسف. لم نزل تجهلها، ولم تزل طفيفة جداً في برامجنا التعليمية.

- «الشرق شرق، والغرب غرب، ولا يمكن أن يلتقيا» هذه المقولة التي كانت تعكس اتجاها فكرياً ساد فترة طويلة في الغرب الأوروبي، ومازال له أتباعه حتى اليوم، ما هو تعليقك عليها في ضوء دعوتك بضرورة مساهمة العرب والمسلمين في تحديث العلوم المعاصرة، وتطويرها وتطبيقها في حياتهم الثقافية والفكرية؟

– لا أؤمن بهذه العبارة، لأن تاريخ الثقافات يشهد عكس ذلك،

obeikan.com

كما أنني لا أحبذ كثيرا هذا التصور الذي يعتمد على المباراة والمنافسة بين الجانب الإسلامي، والجانب المسيحي الغربي.

ولعل الفكرة التي عالجها كتاب المؤرخ فرناند برودل «عالم البحر المتوسط في عهد «فيليب» هي أفضل رد على القائلين بأن الشرق لا يمكن أن يلتقي مع الغرب، فالمؤرخ في كتابه يؤكد أن عالم البحر المتوسط قد تكون تحت تأثر تيارات ثقافية وفكرية ترجع إلى مصدرين:

(١) مصدر يوناني.

(٢) مصدر الأديان المنزلة.

وهذان المصدران قد عملا في تكوين الفكر الإسلامي قبل أن يعملا في تكوين الفكر المسيحي في القرون الوسطى، ثم الفكر الغربي.. الذي أنتج العلمانية. وإذا كان هناك خلاف بين الجانب الإسلامي والجانب الغربي فهو نفس الخلاف الذي كان موجوداً بين الغرب العلماني والغرب المسيحي في القرون الوسطى.

فالقطيعة إذن قطيعة فكرية ترجع إلى مكانة الدين في الحياة الاجتماعية والتاريخية، ومعروف أن معنى العلمانية بعدما حلت محل الدين في توجيه الحياة الاجتماعية والتاريخية، وتعويض الدين بالعلمانية، هي مشكلة فلسفية لاتزال قائمة في الغرب وعند المسلمين على السواء.

العلمانية ليست حلاً

• هل يعنى ذلك أننا يجب أن نواجه «العلمانية» بنفس الطريقة التي واجهها بها الغرب المسيحي؟

- الشيء المحقق أننا اليوم في مرحلتنا التاريخية الراهنة مجبورون أن نواجه نفس المشكلة الذي واجهه ولا يزال يواجهه الغرب وهو معنى العلمانية ومعنى الأديان في تسيير حياة الإنسان في المجتمع. لا يكفي أن نردد أن الإسلام دين ودولة. قد يكون الأمر هكذا لكن يجب على المفكرين المسلمين أن يراهنوا على أن الدين والدولة يتماشيان ويعملان معا لابداع نظام سياسي أصيل يكون بديلاً لما عُرف في التاريخ من النظم السياسية.

- يمكننا أن نقول طبعا إن القرآن يلهم بهذا النظام المثالي الذي تتوق إليه عقول المسلمين وقلوبهم إلا أن تاريخ المسلمين منذ وفاة النبي «صلى الله عليه وسلم» يشهد بكل وضوح بأن هذا النظام المثالي الذي دعا إليه القرآن لم يُطبق قط. هذا سؤال قد طُرح منذ وفاة النبي ولم يزل مطروحاً إلى الآن، وهو هل في إمكان الإنسان أن يحقق في تاريخه النظرة المثالية أو الطوباوية التي يدعوه إليها القرآن؟ وإذا كان في مقدوره أن يحقق هذا المثل الأعلى فما السبيل إلى ذلك؟ وما

هي الشروط التي لابد منها؟ وما هي النظم الواقعية التي يجب علينا أن نبدعها إبداعاً خارجاً عن النماذج التي عرفناها باسم الديمقراطية في الغرب أو بأسماء أخرى عند غيرنا؟

- إذن نحن سائرون حتما إلى طريق العلمانية؟

- فلسفتي الشخصية تتلخص في أنه لا توجد حتمية في التاريخ. هناك طرق متشعبة لحرية الإنسان، الذي يمكنه أن يختار ما وسعه الاختبار.. إن السلوك الذي يؤدي إلى التصرف بحرية التفكير وحرية الإبداع والجرأة في الاختيار لا يكون إلا باحترام الإنسان كإنسان وأذكر هنا كلمة لأبي حيان التوحيدي يقول فيها: «إن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان» ومن ثم وجب علينا أن نجتهد دائماً للتعرف على هذا الإنسان، حتى نحترم حقوقه كما ينبغي، وحتى نسير نحو المثل الأعلى الذي نتوق إليه على ضوء ما ذُكر في القرآن.

وأضاف الدكتور أركون يقول: فيما يخصني أرى أن الغرب قد دفع بقوى سياسية إلى تبني العلمانية ولكنه في الوقت ذاته لم يحل المشكل الفلسفي المتضمن في كل نظام مبني إما على فصل الدين عن الحكومة من جهة وإما على الخلط بدون تمييز بين الدين والدولة.

ولذلك أقول: إن مشكلة الدين والعلمانية لا تزال مطروحة لدى الجميع الغربيين والمسلمين على السواء، إذ هي مشكلة تؤدي إلى

مشكلة أخرى أعمق وأكثر صعوبة وهي مشكلة «المعنى» من الحياة البشرية، وهي بدورها مشكلة فلسفية أشهد أننا لم نعتن بها حق الاعتناء حتى الآن..

• ما هي الظروف التي دفعت الغرب على طريق العلمانية، وهل وُجدت ظروف مشابهة لها في تاريخ الفكر الإسلامي..؟

- نعلم أن الطبقة البرجوازية قد لعبت دوراً حاسماً في خلق النظام العقلاني، إذ هي التي نافست الكنيسة كطبقة اجتماعية واقتصادية قوية، حتى انتصرت عليها وأخذت منها في الحكم وفي الاقتصاد وعلى الرغم من أن هذه القوة الاجتماعية «البرجوازية» لم توجد قط في تاريخ الإسلام، كما وُجدت في الغرب إلا أن طبقة مشابهة قد ظهرت في القرنين الثالث و الرابع الهجريين ولعبت دوراً ما في عقلنة الثقافة الإسلامية، وهذا ما نشاهده في القرن الرابع عشر وخاصة عندما ظهرت تلك الفئة من المثقفين والمفكرين من جيل أبي حيان التوحيد ،وابن مسكويه وأبي سليمان المنطقي وغيرهم من الأدباء الفلاسفة أو الفلاسفة الأدباء.

إلا أن التطور التاريخي بعد القرن الرابع الهجري أدى بسرعة إلى فشل هذه الطبقة البرجوازية المعتمدة على التجارة ففشلت بفشلها التيارات العقلانية التي سادت في القرن الرابع الهجري ولهذا نرى مثلا أن المفكر الكبير المجتهد المبدع ابن رشد فشل فشلا مدهشاً

عند المسلمين إذ دُفن فكره في نفس العام الذي دُفن فيه جسمه لحملة فقهاء المالكية ضد الفلسفة والمتفلسفين، بينما أقبل المفكرون الغربيون بعد سنوات قليلة من وفاة ابن رشد على جميع مؤلفات هذا المفكر المسلم، فأمعنوا البحث في معرفة مناهجه في تفسير القضايا العقلية والدينية.

وليس صدفة أن يهتم القديس توما بفكر ابن رشد، بينما أهملناه نحن ولانزال نهمله إلى يومنا هذا.

- ماذا يطلب الدكتور أركون من المثقفين العرب في هذه المرحلة الراهنة؟

– مازالت صورة الإمام محمد عبده هي صورة المثقف الملتزم الذي أود أن يكثر أمثاله في حياتنا الفكرية، فقد كان من المثقفين القلائل الذين نظروا إلى الغرب بحذر من جهة وبجرأة ووعي من جهة أخرى لم يحتقر الفكر والثقافة الغربية، وحاول أن يتبنى ما هو صالح لتحديث عملية الاجتهاد ولتأصيل الإسلام في التاريخ الحديث.

ولاشك أن المثقف العربي اليوم يُطلب منه أن يقف من جميع المشاكل التي تطرح في مجتمعنا موقف الباحث والمجتهد والمعلم للأجيال المقبلة على أساس النقد الفكري القويم. لأننا نخضع إلى كثير من الأقوال التي لم نكلف أنفسنا المسؤولية لتصحيحها وأعني

بالمسؤولية الفكرية الحذر من تبني أي فكر دون أن نتحقق من موضوعيته وصلاحيته ليس فقط لمجتمعنا ولكن أيضاً لتحرير الإنسان كإنسان من جميع ما يعوق حريته وانطلاقه إلى إنجاز تلك النظرة الطوباوية التي دعت إليها الأديان والفلسفات والنظريات المعنية بشرف وكرامة الإنسان.

obeikan.com

أركون... وبقايا ذكريات!...

«قد كنت أؤثر أن تقول رثائي» هذا هو الشطر الذي بدأ به أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدته التي أبّن بها زميله شاعر النيل حافظ إبراهيم، ولا أجد أفضل منه لكي أبدأ به كلمتي عن محمد أركون الجزائري الذي مات في باريس عن عمر يناهز الثانية والثمانين عاما.. وإن كنت أنسى كل ذكرياتنا وهو (أستاذي الذي علمني في السوربون) فلن أنسى ما حييت يوم بعث لي كتابه عن العرب في سلسلة «ماذا أعرف» que sais-je? الشهيرة بإهداء قال فيه: إلى شيخ الصحفيين العرب أبعث هذا الكتاب!

وأذكر أنه جاء إلى القاهرة واستضافته القناة الفضائية المصرية في زمن رئاسة «ميرفت سلامة» التي خصصت له زمنا مفتوحا، وعندما حدثته عبر الهاتف وأخذت أناقشه فيما قال من أفكار، وما كان قد علمني إياه، أذكر أن الرجل قد بكي وكأنه لم يكن يصدق أن أحداً سوف يناقشه، كما أذكر أني قابلته يوم اختاره السيد عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية من ١٠٠ شخصية عربية للتفكير في

مستقبل العرب والمسلمين بالخارج، وطلب إليّ أن يقوم بجولة في منطقة الحسين بالقاهرة لكنه بعد أن وجد أنه لا يستطيع عبور الشارع رغم أننا كنا حوالي منتصف الليل، وأذكر أنه هتف بمجرد جلوسه بالسيارة وسؤاله عن الأزهر الشريف والألف مئذنة: لقد عرفت لماذا سميت مصر بـ«أم الدنيا»!

في مكتبه بالسوربون.. أذكر المناقشات التي كانت تدور حول الإسلام والعلمانية التي كان يصر على أنها تأتي من كلمة علم «بكسر العين» وليس من العالم «بفتح العين».

رحم الله محمد أركون الذي كان يؤمن بالعروبة قولا وفعلا فهو جزائري لكن زوجته كانت مغربية أما ثقافته فكانت مصرية خالصة، وكان يكتب إنتاجه باللغة الفرنسية واختار صديقه هاشم صالح السوري الجنسية لكي يترجم له.

obeikan.com

وقصة كتاب لم يكتمل..!

عندما ذهبت إلى باريس، كان ذلك قبل ثلاثين عاما كان اسم محمد أركون ملء السمع والبصر، وكانت الجامعات الفرنسية هي قِبلتنا التي نلتقى فيها صباحا ومساء، وأذكر أن أحدهم قد همس في أذني وقد بدا له إعجابي بأركون: لا تفكر في مجرد تسجيل الدكتوراه تحت إشراف مسيو أركون، فالرجل لا يحب العرب ويكره أصله العربي الجزائري..

وكانت هذه النصيحة الخبيثة كفيلة بأن تبعدني عن الرجل سنوات وسنوات، وعندما التقيت به لاحقا في أحد مؤتمرات المتوسطية الذي كان مركز الدراسات العربي الأوروبي من أوائل من اهتموا بها، وجدته أمامي يحمل أوراق في حقيبته كتلميذ مجتهد فسألته عن سبب كراهيته للعرب فأجابني بقوله: كيف أكره العرب وأنا منهم؟ ثم كيف أكره العرب وعندما بحثوا عن شخص يكتب عن العرب.. لم يجدوا سواي.. ثم لا تنس أن اسمي الأول محمد.. ولا أتساهل مع أولئك الذين يكتبونه خطأ فقديما كتبه بهجت النادي رئيس تحرير مجلة «رسالة اليونسكو» فصححته له وكتبت إليه

التصحيح بنفسي وقلت أنا اسمي الأول «محمد» على اسم صاحب الرسالة الإسلامية، أما اسمي الثاني وهو أركون لا «عركون» وهو اسم عربي أصيل ودرست في المدرسة الثانوية بوهران وكنت طالبا بكلية الآداب بالجزائر! ثم استطرد قائلا: في الحقيقة يبتعد عني الطلبة لأنني اشترط أن يملك الطالب ناصية اللغة العربية أولا ثم ناصية البحث العلمي ثانيا، وأريده أن يكون كحالي عندما كنت طالبا في الدكتوراه حيث كنت لا أتأفف وأنا أسير في حي المجاورين في الأزهر الشريف أو أضرب موعدا مع أحد الوراقين الذي يأتي إلى – وهو فرح سعيد – بأوراق مكتوبة عن ابن مسكويه، الذي درسته دراسة شاملة في الدكتوراه.. حرضني ما سمعته لأوجه عن سؤالى عن علاقته السيئة برجلين: الأول عبد الرحمن بدوي أستاذ أساتذة الفلسفة في عالمنا العربي، والثاني هو جاك بيرك صاحب أصدق ترجمة لمعاني القرآن الكريم فأجابني الرجل – وقد انفرجت أساريره – بعد أن تحلق حوله عدد من المؤتمرين، وقال: عندما يُذكر اسم بدوي أكاد أخر ساجدا لموهبته الربانية في تحقيق التراث العربي أما شخصه – قال ذلك وهو يضحك – فهو كريه إلى نفسي، أما بيرك فلقد طُبعت ترجمته أكثر من مرة في الجزائر –التي ولدت بها– ولست مع أولئك الذين يرفعونه إلى أعلى عليين (مع الصديقين والشهداء) إنه إنسان عادي، وكل ما هنالك أنه يمثل تيارا فكريا من حق الأجيال المقبلة أن تجتهد وأن تذهب أبعد مما ذهب إليه رغم أنه صاحب أول ترجمة أمينة –لأنه يحب الأدب، قال ذلك ثم شد حقيبته إلى

صدره، والتفت حوله، ثم استأذن في الرحيل.. تذكرت على الفور شارع المعبد الذي كان أركون يحب أن يسير فيه ثم الفندق الشهير الذي كان مولعا بالجلوس فيه والمخطط العام الذي كان يحيط بكل ما قدم في الفكر الإسلامي.. فقد كان – يرحمه الله – يريدني أن أكتب عنه كتابا.. وأذكر أنه في كافتيريا ذلك الفندق الذي يقع في ميدان الجمهورية قال: إنني أود أن تكتبه بلغة الكفاح المعروفة عن فترة عبد الناصر وحزب البعث والحركات القومية في المغرب: وتبدأه بفصل أول عن أركون يواجه الاستعمار وتشرح فيه لماذا اندفعت إلى دراسة موضوعات خاصة بالفكر العربي، وهي الأخلاق عند مسكويه والسبب هو رغبتي في أن أجد أسلحة أرد بها وأكافح بها الباحثين الغربيين الذين يتهمون الفكر العربي والإسلامي أي بأنه لم يتبع نزعة فكرية وثقافية تماثل النزعة المعروفة في أوربا ويضيف أركون: عندما قرأت ذلك في حي المجاورين في قاهرة الألف مئذنة، قلت في نفسي يجب أن أرد عليهم، ولذلك أريد أن أسميها: الأنسية العربية في القرن الرابع الهجري.

أما الفصل الثاني من الكتاب فهو أركون والإسلاميات التطبيقية وفيه يجيب أركون عن السؤال: لماذا توجه إلى دراسات تهتم بنقد العقل الإسلامي وليس العقل العربي والأسباب هي أني سمعت في الجزائر بعد استقلالها حديثا عن الاستقلال (أيديولوجي للفكر الإسلامي والثقافة العربية) أن الجزائريين ما كانوا يعرفون ولا

يزالون يهملون الثقافة العربية والفكر الإسلامي ويتحدثون أنهم عرب ومسلمون ويتشدقون بكلام العروبة والإسلام وهم جاهلون بالتاريخ فقلت كجزائري يجب على أن أساهم في تعريف الجزائريين: ما هو العقل العربي وما هو العقل الإسلامي. وإذا انجزت هذا العمل لابد أن يستفيد منه كل العرب وليس الجزائريين فقط ولإنجاز هذا العمل يقول أركون! اكتشفت أنه لابد أولا الإحاطة بعلوم الإنسان والمجتمع لأنها تزود بوسائل التفكير ومناهج البحث العلمي النقدي أولا ليس فقط من الناحية البحثية التاريخية كتاريخ، ولكن أيضا بإثارة أسئلة مرتبطة بالوضع الأيديولوجي الراهن في المجتمع الجزائري والمجتمع المغربي وفي المجتمع العربي بصفة عامة وما حديثي في هذا الفصل عن المجتمع الجزائري إلا لأني أعرفه كمنطلق فقط لأعمم البحث على جميع ما يهم الفكر العربي المعاصر وجميع العرب المعاصرين الذين يواجهون مشكلة ممارسة الحداثة الفكرية. وفي الفصل الثالث وهو بعنوان: أركون والبحوث القرآنية ويعتمد اعتماداً أساسياً على كتابه قراءات في القرآن وفي الفصل الرابع بعنوان أركون وتحديث العقل الإسلامي، وفيه يجيب أركون عن السؤال: كيف نُفعِّل الإسلام اليوم؟ وفي الفصل الخامس وهو بعنوان أركون والتاريخية وفيه يحدد أركون موقعه من التاريخ كعلم ومن التاريخ كحياة واقعية للمجتمع، وهناك مشكلات عديدة يواجهها كل باحث في التاريخ

وهي كيفية التعبير عما يتعلق بحياة الجماعات احتراما لروح العصر ومعاجم العصر، ورفضا لعمليات الإسقاط على العصور الماضية وأيضا مشكلة الفصل بين المعرفة القصصية والمعرفة التاريخية، وفي الفصل الأخير الذي حمل عنوان مصادر ثقافة أركون هناك أجاب عن قضية العلمانية والثورة الديمقراطية وقضية حقوق الإنسان وقضية النموذج الحضاري وقضية الفلسفة وعلم الكلام في الغرب وعند المسلمين، وقضية البحر المتوسط وقضية الأديان المقارن وقضية النتروبوليجيات العربية ونقد العقل السياسي. هذا ما قاله محمد أركون عن نفسه، وعن الكتاب الذي أرادني أن أكتبه، وما أعلمه أنه نشر فصولا باللغة الفرنسية عن الأنسية والإسلام، وعن منهجه في نقد العقل الإسلامي وعن طريقته في القراءات القرآنية، لكنه -يرحمه الله- لم يفكر في كتابة أعماله باللغة العربية ليس لأنه لم يكن يعرف اللغة العربية فقد كان لا يتكلم معي غيرها، وإنما لأنه كان يشعر بمرارة شديدة عندما يتجاهله الفكر العربي مع أنه ظل في السنوات الأخيرة البوابة الطبيعية للفكر العربي والإسلامي في جامعات الدنيا التي كان يُدعى فيها كأستاذ زائر واختتم بقولي: إن محمد أركون الذي رحل عن دنيانا عن عمر يناهز الثمانين كان يرى ضرورة مسايرة العصر الحديث لتبرئة الإسلام من تهمة أنه سبب التخلف، وأن تهميش الشباب في المجتمعات الإسلامية يزيد من حدة التوترات السياسية الحالية.

أركون إلى متى تتجاهله حركة الفكر في مصر؟!

obeikan.com

من المفارقات المثيرة للدهشة في حياة المفكر الجزائري محمد أركون أنه يتكلم ويكتب بشكل جيد اللغة العربية، ورغم ذلك يتردد أنه لا يعرف من لغة الضاد سوى بضع كلمات فقيرة.. ويقال أيضا إنه لا يعرف من الفكر الإسلامي إلا القليل الضحل، مع أنه متبحر إلى حدود مذهلة في تراثنا وفكرنا الإسلامي ويأخذ موقفا نقديا يكاد يصل إلى حدود «العداء الفكري» في بعض الأحيان إزاء معظم ما يكتبه المستشرقون عن حياتنا الفكرية.

والحق إن أركون يتألم كثيرا لهذه الصورة المغلوطة والشائعة عنه. وأكثر ما يؤلمه أن المفكرين والباحثين الجادين في مصر على سبيل المثال يغضون الطرف عنه جملة وتفصيلا.. وإلا فأين الدراسات التي تعالج فكره، أو الندوات التي يساهم فيها؟

وفي ظني أن هذا الموقف من أركون قد لا يكون «موقفا منه» بقدر ما هو سمة من سمات حياتنا المعاصرة التي أضحى فيها عدم الاكتراث بكل ما هو «جيد ومفيد وجاد» شيئا –للأسف– طبيعيا

ومألوفا.. وأسباب هذا الظن – كما أتصورها – هي أن أركون باعتراف القاصي والداني يعتبر قيمة فكرية أساسية في حياتنا، فضلا عن كونه بابا رئيسيا – من وجهة نظر مؤرخي الفكر- يعبر بنا إلى عالمنا الفكري والإسلامي الرحب..

بمعنى آخر، إن من يؤرخ لحياتنا الفكرية ليس بوسعه أن ينظر «بنصف عين» إلى إنتاج محمد أركون المتعدد والمتشعب في مجال الدراسات الإسلامية والعربية.. فالرجل أوقف حياته منذ بواكير أيامه على رسالة يحدها منذ بواكير أيامه على رسالة يحدها طرفان، الأول هو التنقيب في تراثنا الفكري لإظهار جوانب «العقلانية» و «الإنسانية» فيه. والثاني هو القيام بدور الوسيط الفكري بين الإسلام وأوروبا بهدف إجلاء الضباب أو الغموض أو سوء الفهم الذي يريد على حد تعبيره – على كلا الطرفين بسبب التوترات والصراعات السياسية.

وللإنصاف يجب أن نذكر أن كل من اقترب من محمد أركون، أو عرف إنتاجه جملة وتفصيلا لابد سيدرك على الفور أن هذه الرسالة لم تغب لحظة واحدة عن بال وخيال أركون عبر سنوات عمره السبعين.

فالكتابة بشكل عام عند أركون، وكتابة الفكر بشكل خاص ليست مجرد تسجيل أو تبليغ وإنما هي –كما يقول- تخريج للواقع

في أسلوب شخصي طريف وأصيل وإنتاج فني يتسم بتفاعل خاص بين فكر وواقع ولغة.

وهو يرى أن الفكر يختلف إدراكه للواقع باختلاف تكوينه الوجودي والوجداني والعلمي. كما أن الواقع بتنوع بتنوع البيئة الجغرافية والاجتماعية والثقافية.. أما اللغة فتتفاوت بتفاوت ثروتها العلمية ومرونته الأدبية ومنزلتها من الفصحي المكتوبة واللهجات الشفاهية.

ويؤمن أركون بأن كتابة المفكر تمتاز عن سائر الممارسات الكتابية بما أن المفكر يركز اهتمامه على اختيار الألفاظ ليحولها إلى مفاهيم شاملة لمظاهر عديدة وخصائص ووظائف متنوعة يختص بها كل موضوع من موضوعات البحث..

ويقترب أركون أكثر وأكثر من ثورته الخاصة بالتاريخ الإسلامي فيذكر أنه يواجه صعوبات جمة منها أنه كمؤرخ للفكر الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية الصعبة التي يطغى عليها الخطاب الأيديولوجي والرقابة السياسية والاجتماعية معا لا يزال يتوقف ويعدل عن معالجة بعض الموضوعات، ويتجنب المحاذير من استخدام الألفاظ والعبارات حتى لا يفسرها القارئ المسلم على عكس ما ينتويه من الإفادة العلمية، وحتى يسلم -كما يقول- من تكفير من يجهل قواعد الفكر الحر، ومن يسمح لنفسه أن يرتقي إلى

obeikan.com

مرتبة المفتي المجتهد وهو أبعد الناس عن هذه المرتبة.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن دور محمد أركون في فكرنا العربي المعاصر أن نشير إلى أن أول كتاب له كان بعنوان «الفكر الإصلاحي عند طه حسين».. وضعه عندما كان طالباً بجامعة الجزائر وكانت رغبته شديدة في أن يفهم ويقوم إسهام عميد الأدب العربي في تحديث الخطاب الإسلامي وتحديد مفهوم الدين ووظائفه في المجتمع. نقطة أخرى جديرة بالإشارة هي أن أركون كان ولا يزال يحرص على أن تلتصق كتاباته بواقع المجتمعات التي ينتمي إليها وهي كما يحددها بنفسه: المجتمع البربري الذي ولد فيه، ثم المجتمع المغربي بدوله الخمس تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ثم الأمة العربية الناطقة باللغة العربية المنتجة للثقافة، والأمة الإسلامية التي تمتد جغرافيا من إندونيسيا إلى المحيط الفرنسي الذي عاش فيه والأمة الأوروبية التي ستتحد عما قريب على أساس تاريخ وثقافة وفكر، ساهم في تكوينها الإسلام والفكر العربي في مرحلته المبدعة.

أما الجانب الآخر من رسالة محمد أركون الفكرة فهي كشف زيف الصورة التي يعرفها الغربيون عن الإسلام، فيرى أركون أن أوروبا لا ترى في الإسلام سوى مجرد طقوس عبادية واقعة تحت ضغط المراقبة الاجتماعية المتشددة أما البعد الفكري والروحي

والحضاري للاسلام فهو شبه غائب، والسبب من وجهة نظر أركون هو أن الاستشراق الكلاسيكي «والأدبيات السياسوية» المتسرعة والمنتشرة عن الإسلام والحركات الإسلامية في الغرب حالياً تزيد للأسف من انتشار هذه الصورة عن الإسلام المجرد الذي يقف فوق الزمن والتاريخ. بمعنى الإسلام الأقنومي الذي لا يتأثر بشيء ويؤثر على كل شئ بل إن الأدبيات الاستشراقية تضفي ثقلها العلمي على هذا التصور السكوني الجامد عن الإسلام والمسلمين ماضيا وحاضرا.

●● يبقى أن نذكر في نهاية هذه العجالة أن محمد أركون هو رمز عربي إسلامي أنضجته أرض الجزائر مثلما أنضجت من قبله مالك بن بني صاحب «الظاهرة القرآنية» وإذا كان هذا الأخير، أتيح له أن يعرف وينتشر في مصر قبل أكثر من ثلاثين عاما فليس أقل من أن يأخذ هذا الرجل (محمد أركون) فرصته هو الآخر.. لأنه لا معنى لأن يكون فكره معروفاً في أوروبا وغالبية دول العالم الإسلامي، بينما يظل غائبا أو بالأحرى مغيبا في مصر.

إلى زعيم الصحافيين المجاهدين العرب بعاصمة المؤمنين، باريس المحروسة،

تحياتي الأخوية

وبعد فقد حاولت الاتصال بك مرارا ولم أجدك إذ حرمنا

الإضراب من اللقاء كما تواعدنا، فلذا أرسل لك النص الذي حفرته أملا أن يكون مجيبا لأسئلتك وأود أن تخبرني أين ومتى ستنشره. وإذا بدأ لك أن تصلح جملة أو تضيف شيئا فلك الأذن مني بذلك بشرط أن تبقي الأفكار والاتجاهات كما أردت أن تكون،

مع مشاعر المودة وتماني النجاح في عملك المهم المفيد

من العبد الحقير

إحدى رسائل محمد أركون

وبخطه الشخصي للمؤلف..

obeikan.com